

صراع الشكاك: نيتشه والبيرونية

Skeptics Conflict: Nietzsche and Pyrrhonism

عبد الكريم غنيات

جامعة محمد لمين دباغين، سطيف 2.

anaytkarim@live.fr

تاريخ النشر: 30/12/2021

تاريخ القبول: 11/10/2021

تاريخ الإرسال: 09/09/2021

ملخص

يمكن لنا بضرية مباشرة وسديدة أن نطابق بين تاريخ الفلسفة وتاريخ الشك. على أساس أن الموقف الفلسفي في أصله هو موقف تشكيكي عمل على استئصال شأن الأجوبة المقدمة لكبرى المشكلات الكونية والإنسانية. وسؤال الفلسفة الأول، الذي صاغه بعض حكماء الإغريق القدماء، طرح في سياق الشك في الأجوبة الدينية الموروثة والمألوفة وقتذاك. ولئن كان كل تفكير تشككي، فإن الشك قد يكون شك منهجي معتدل وقد يكون شكاً جذرياً أو مذهبياً مفرطاً. وفي تاريخ الفكر الفلسفي يمكن لنا أن نلاحظ لحظتين ريبيتين بارزتين؛ الشك البيروني في القرن الثالث قبل الميلاد، والشك النيتشوي في نهاية القرن التاسع عشر. كلاهما شكٌ عاصف أتى على كل اليقينيات التي علقت بالفلسفة وكل المجالات المتداولة. ومن هنا، وفي سياق دراسة قراءة نيتشه للفلسفة الإغريقية، ظهر لنا وجه قوي للمقارنة بين شك البيرونيين وشك نيتشه. من خلال الطرح التالي: كيف استفاد نيتشه من الشكاك الإغريق؟ وهل شك في شكهم؟ كيف يمكن لنا أن نُصور تفاصيل مشهد صراع هؤلاء الشكاك؟

الكلمات المفتاحية: الشك المذهبي، الليرونية، نيتشه، الحقيقة، إرادة القوة، تعليق الأحكام.

Abstract

With a direct and good stroke, we can reconcile the history of philosophy with the history of skepticism. Assuming that the philosophical position is originally a skeptical position that has functioned to form a problem concerning the answers to the great cosmic and human problems. The first philosophical question, formulated by some of the sages of ancient Greece, was asked in the context of doubts about the religious responses inherited and familiar at the time. And if all thought is skepticism, the skepticism can be moderate systematic doubt, and it can be radical or excessive sectarian doubt. In the history of philosophical thought, we can note two notable skeptical moments; The skepticism of pyrrhonism in the third century BC. AD and Nietzschean skepticism at the end of the 19th century. Both are a stormy doubt which eclipses all the certainties attached to philosophy and to all the fields in circulation. Thus, within the framework of the study of the reading of Greek philosophy by Nietzsche, a strong comparison emerged between the doubt of the pyrrhonists and that of Nietzsche. Through the following proposition: How did Nietzsche take advantage of the Greek skeptics? Is

there any doubt in their doubt? How to represent the details of the scene of the struggle of these skeptics?

Keywords : Doctrinal skepticism, pyrronism, Nietzsche, Truth, Will to Power, Suspension of Judgments.

1-مقدمة:

قد نختلف في تحديد مفهوم وماهية الفلسفة أو الحكمة، حسب المنطلقات النسقية لكل مذهب أو الثوابت الدوغمائية لكل نسق فكري أو حتى المسلمات الإيديولوجية التجميعية لكل سياق حضاري. لكن الذي لا نختلف فيه أصلا هو أن الفلسفة كنزوع فكري وذهنى هي ذلك العقل المتوقع الباحث والمستقصي والمنفتح دوما تفاديا لزوايا مغلقة أو مظلمة، الفلسفة هي أعمال الشك والريب، وعدم القبول والاستسلام الفكري لمسائل يعتقد أنها بديهية. فلا بديهي في الفلسفة، الفلسفة في ذاتها كانت موضوع شك والفيلسوف كان دائرة مركزة للريب والتفديد والتسفيه في بعض الأحيان. الفلسفة مهما اختلفت منطلقات ممارستها، إلا أنهم يتفقون جميعا أنها ثورة على المؤلف، وثورة على الثورة كذلك، هذه الثورة المستدامة هي التي تعطي للفلسفة ماهيتها الحقبة. وعندما يطلب الفيلسوف السكنية ويناشد الاستقرار، فعندئذ يمكن أن نعتبره فيلسوفا منقوصا. لأنه ركن إلى الأفكار الناجزة المغلقة. وهذا بالضبط ما كان يسميه ماركس وإنجلز بالإيديولوجيا على أساس أنها فكر غير لم يبلغ الحدود اللازمة لكي ينقلب على ذاته تصحيحا وتطويرا، الفارق بين الفلسفة والإيديولوجيا يكمن في عجز الثانية عن مواصلة التفكير دون نهاية.

إن الفلسفة هي التفكير دون حدود أو أسيجة مانعة وعازلة، هي توليد الأسئلة من الأجوبة دوما وعدم الوقوف عند جواب يوصف بأنه النهاية أو الخاتمة أو العقيدة الثابتة الراسخة، بل هي البحث الذي يجعل كل جواب ينادي لسؤال آخر ويستدعي مشكلة جديدة، كما عبر عن ذلك أفلاطون في مآدبته وياسبرس في تمهيدته للفلسفة.¹ وهذا يعني أن الشك هو الأخ الشقيق للفلسفة، إن لم يكن هو ذاته الفلسفة، إذ لا تقوم هذه الأخيرة إلا إذا توفر الشك، وهو في ذاته يولد الفلسفة والبحث الحر والجذري. والحديث عن الشك الفلسفي بالمعنى المذهبي والتعليمي يقودنا مباشرة للمدرسة اليونانية المعروفة بالشكاك أو البيرونيين. والحقيقة أن المدرسة الأفلاطونية ذاتها قد انتهت، في طبقاتها المتوسطة والأخيرة، إلى ضرب من الشكوكية العاصفة والتي تماهت مع الشك البيروني ذاته. حيث يخبرنا ديوجين بأن أرخسيلاؤوس (242/318 ق م) أول من "قام بتعلق الحكم بناء على تناقض البراهين المتقابلة (...)" ويقال بأنه لم يؤلف أي كتاب بسبب تعليقه للحكم في كافة المباحث والموضوعات".² وانتهى إلى أنه مقلد كلية للفيلسوف بيرون pyrrôn، مما يدل على امتزاج الأفلاطونية وبالبيرونية.

¹ Platon : le Banquet (ou de l'amour genre moral), traduit par Paul Vicaire, édition les belles lettres, Paris, 1922, p 63. Et Karl Jaspers : Introduction à la philosophie, traduit par Jeanne hersch, librairie Plon, Paris, 1980, p 10-11.

² ديوجينيس اللانترني: حياة مشاهير الفلاسفة، المجلد الأول، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2007، فقرة 28-32-33، ص 340-344.

لكن وبالنظر إلى ما قدمناه إلى الآن، بمعنى الإقرار تماهي الفلسفة والشك، فإننا نستطيع القول بأن الشك الفلسفي ليس حكرا على مدرسة الريب Scepticism في القرن الثالث قبل الميلاد وهي المدرسة المعاصرة لكل من الرواقية والأبيقورية والتي مرت بثلاث مراحل كبرى: مرحلة بيرون (هناك من يكتبه فيرون أو فورون) المؤسس الأول، ثم مرحلة الأكاديمية الجديدة مع أسبوسيون وإكسينوقراط وكارينيدس. وأخيرا مرحلة الشك المتأخرين أو المحدثين مع شخصية أنسیداموس في القرن الثاني للميلاد وسيكستوس أمبريكوس الروماني. والمبدأ الذي يجمع كل هذه المراحل رغم الاختلافات الجزئية، ويجمع كل الفلاسفة الشك هو: الثورة ضد الوثوقية أو الدوغمائية، التي سادت الفكر الفلسفي اليوناني، خاصة في مراحل المدارس الأثينية الكبرى والتمثلة في الأكاديمية، والسيوم، والرواقية، والأبيقورية.³ وقد كان بيرون يعلق الأحكام تجاه كل القضايا، ويمتنع عن الإدلاء بأي رأي لأنه عرضة للنقد والمعارضة برأي مقابل، وأنهى إلى ضرب من عدم الاكتراث والسلبية وبرودة الأعصاب. من أجل تقادي الدخول في جدالات فكرية لا تنتهي ولا توفر أي راحة فكرية. فالحكمة الحقيقة لا تكمن في المعارك المفهومية والحروب الفكرية، بقدر ما تتمثل في الحفاظ على الاطمئنان أو الأتراسيا.⁴ ومن الظاهر أن هذه اللفظة ذاتها قد استخدمها الرواقيون والأبيقوريون في سياقات أخلاقية خاصة. لقد تأثر نيتشه بالفلسفة اليونانية أيما تأثير، لدرجة أنه سكن بروح الفلاسفة الإغريق الكبار، وعاش مثلهم وأراد الموت بطريقتهم. وفي أحد رسائله إلى ماتيلدة ماير المؤرخة سنة 1878 يقول عنهم: "أنا الآن أشد إخلاصا من كل ما مضى لكل ما هو جيد وحيوي، أقرب بكثير إلى الإغريق من كل ما مضى".⁵ إنه الفيلسوف المتأغرق الذي فاق في تأغرقه هيجل ذاته الذي أعاد تدشين الفلسفة الإغريقية القديمة. وعلى الرغم من أنه اعتبر الفلسفة الإغريقية فلسفتان: فلسفة التراجيديا العليا وفلسفة العقل المنحطة التي تبدأ مع سقراط إلى النهاية، إلا أنه تأثر بشكوكية الريبين حيث رفضوا أي حكم مطلق وامتنع عن الاعتقاد بوجود حقيقة خالدة لا تموت... الخ. رغم ذلك، نجد نيتشه ينتقدهم ويتجاوز شكوكيتهم التي رفضت من طرف العديد من الفلاسفة. وهنا تظهر المشكلة الفارقة: كيف أمكن لنيتشه أن يتأثر بشكوكية الفلسفة الريبية ويتنكر لها في نفس الوقت؟ ماهي المبررات التي جعلته يتجاوز الفلسفة الريبية على الرغم من أنه عديم في الكثير من مواقفه؟ والعدمية كما نعلم هي اعدام أي قيمة معرفية أو أخلاقية. هذا ما ستعمل هذه الدراسة المختصرة على تبيان وتحليله.

2- الفلسفة الريبية:

قلنا أن الشك وإن تحددت معالمه بهذه المدرسة الريبية المعروفة بالبيرونية أو البيرونيين أو المتحيرين (هم هيكتيوس من أديرا، وتيمون من فليوس، وناوسيفانيوس من تيوس)، إلا أن الشك الفلسفي قديم قدم الفلسفة اليونانية ذاتها، بل الفلسفة إطلاقا. إذ أن الفلاسفة الطبيعيين عندما

³ Pierre Aubenque : Les philosophies hellénistiques. In La philosophie, de Platon à St thomas, Sous la direction de François Châtelet, Librairie Hachett, Paris, 1972, pp 165 – 169.

⁴ ديوجينيس اللانترني: حياة مشاهير الفلاسفة، المجلد الثالث، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2014، فقرة 62-68، ص ص 173 - 177.

⁵ فريدريك نيتشه: رسائل نيتشه- مختارات من سيرته وفلسفته، ترجمة حيدر عبد الواحد وأحمد رضا، منشورات تكوين للنشر والتوزيع ومنشورات الراقيدين، الكويت – بيروت، الطبعة الأولى، 2020، ص 206.

طرحوا سؤال الأصل، كان الشك، في المعرفة الميثولوجية التي توارثوها عن القدامى خاصة الشعراء، هو الأساس الذي حرك أذهانهم الفذة، وعقولهم المستتيرة. كما مارس بارمنيدس الشك بجزرية عندما لم يثق في المعرفة التي تقدمها لنا الحواس وانكشف له العلم العقلي الساكن والقار، وذات العمل قام به هيراقليطس لكنه وجه الشك وجهة معاكسة، أي نحو المعرفة العقلية مما ساعده على اكتشاف الماهية كصيرورة، كما أن أصحاب الاتجاه السفسطائي كانوا أرباب الشك دون نزاع، سواء في ميدان المعرفة أو الأخلاق والقيم عامة، وقد وصف أفلاطون شكوكيتهم وصفا دقيقا، ونقل لنا اعتراف بروتاجوراس أن فنه السفسطائي الشكوكي ليس من الأمور المستحدثة، بل قديمة قدم العقل اليوناني سواء عند هوميروس أو هوزيود أو أورفيوس وهذه الشكوكية هي التي تبناها أيضا سقراط كسفسطائي مضاد لهم.⁶ وكما ألمحنا في ملخص الدراسة، فإن الموقف الفلسفي يتطابق مع الموقف الشككي تطابق الحافر للحافر.

ولكن الشك لم يتأسس كمدرسة واتجاه واضح المعالم، محدد المناهج والغايات، له مبادئ وأساتذة وأتباع، إلا بعد تراكم النظريات الفلسفية الإيجابية المفسرة للوجود والمعرفة والقيم، وحدث صراع وتناقض بينها. خاصة النظريات الأفلاطونية والأرسطية الوثوقية، وكذلك المدارس المابعد- سقراطية ممثلة في الرواقية والأبيقورية والكلية. إذ أن كل مدرسة أقرت بمبادئها وأعلنتها كاملة بمثابة الطريق المؤدي إلى الحقيقة والسعادة، وبهذا فهي تمثل الطرف الإيجابي، الذي يثبت ويتبنى نظريات وأفكار على شكل عقائد وثوقية مسبجة لا يعترها التغيير أو التبديل. وإزاء هذا التحديد الإيجابي الذي يثبت ويضع القضايا والمسائل الفلسفية، ظهر الطرف السلبي تجاه الدوغمائية الأبيقورية والرواقية، الذي ينفي ويسلب أو يرفع. هذا الاتجاه هو المعروف بمذهب الشك أو الريب، الذي أسسه "بيرون". وهو ذلك المفكر الذي استوحى من رحلاته المتعددة حيث يقال أنه التقى بالحكماء العراة Gymnosophistai وبالمجوس Magoi في الهند،⁷ ومن الألوان المختلفة من السلوك والعادات والأخلاق، ومن توكيدات المدارس السابقة عليه والمعاصرة له، استوحى مبادئ فلسفته القائمة على المبدأ القائل بـ نسبية المعارف الإنسانية. لأن الملاحظة كما نمارسها في الحياة العادية تكشف أن الأحكام تختلف باختلاف الأطر الزمنية والمكانية، والمعايير القيمية تتناقض حول نفس الموضوع أو الشيء. فهذا تجده مؤمنا والآخر كافرا، هذا يتبنى العمل مبدأ له والآخر يتخذ من النظر قاعدته، تجد قوما يرسمون الآلهة على شكل وقوم يرسمونها على شكل مخالف مثلما لاحظ ذلك بدقة أكسانوفان، مما جعل الألوهية تتلون بالأنثروبومورفية والوحدة تنفتت إلى كثرة. وكل هذه الملاحظات تؤدي إلى القلق والشك والكدر والتساؤل بالنسبة للإنسان الذي يريد أن يعرف حقيقة المسائل. فما هو الحل الملائم إزاء هذا الاختلاف والتناظر في النظريات والسلوكيات؟ هل يمكن تفضيل طرف على حساب طرف مغاير. إن أحسن وسيلة للسعادة والاطمئنان وعدم الوقوع في دوامة الشك والذهول هي تعليق الأحكام ومسيرة العرف هذه هي الفئات التي توصل لها بيرون بعد تأملاته. وقد تكفل ديوجين بجمع حجج المدرسة الريبية حول أطروحتهم الأساسية القائلة بانعدام

⁶ أفلاطون: بروتاجوراس (أو عن السفسطائي والتربية)، ترجمة عزت قرني، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، 2001، ص 78. أيضا: ديوجينيس اللائري: حياة مشاهير الفلاسفة، المجلد الثالث، مرجع سابق، فقرة 72- 73، ص 180-182.

⁷ ديوجينيس اللائري: حياة مشاهير الفلاسفة، المجلد الثالث، مرجع سابق، فقرة 61، ص 171.

حكم نهائي في أي قضية وانعدام معيار موضوعي للتمييز بين القضايا المعرفية والأخلاقية، في النقاط التالية:

- الاختلاف في الإحساس باللذة والألم، وتقدير المنافع والأضرار.
- اختلاف طبائع البشر في الأمزجة والبنية.
- الاختلافات في مسارات الحس: فالتفاحة عند مشاهدتها تكون صفراء اللون باهتة، وعند مذاقتها تكون حلوة، وعند الشم تكون ذات أريج شدي.
- اختلاف الانطباعات والتغيرات. (بين الصحة والمرض)
- اختلاف العادات والمعتقدات والأعراف...
- لا شيء نفي خالص بذاته، فكل شيء مختلط بشيء آخر.⁸

3- شكوكية نيتشه:

عند الحديث عن فيلسوف مثل فريدريك نيتشه، "الفيلسوف الألماني الثائر" أو "الفيلسوف البركاني" الذي تتدفق بعض شذراته حمما حارقة بدلا من الكلمات، تحرق كل ما لم يتعرض للنقد والمراجعة إلى غاية عصره، والذي جعل "قلب كل القيم وإعادة تقييمها" الهدف الأعلى والغاية الأسمى لفلسفته (العبارة الواردة بين شولتين هي العنوان الفرعي لكتابه الأساسي المخلف إرادة القوة). وإن كان فيلسوف القوة قد عمل على بعث طريقة جديدة كل الجدة في تفكيره، ودرس مواضيع كانت هامشية ومستبعدة من ميدان المفكر فيه أو مهمشة على أقل تقدير، فإننا بالضرورة نتحدث عن شكوكيته ومنهجه الريبي، لأن الثورة والقلب كغايات فلسفية لا تتحقق إلا بالنظرة الريبية والشاكة، بل أقصى ضروب الريب والشك. والحقيقة أن جمع واستقصاء نصوص نيتشه وفقراته يكشف لنا على أنه يُظهر شكوكية حادة وريبية جذرية تشابه ريبية الإغريق القدامى الذين عرضنا بعض أسسهم الفلسفية. فهو يقول في مقدمة الجزء الأول من "إنسان مفرط في إنسانيته" ما يعبر عن ذلك حينما تحدث عن انطباع الغير على أعماله: "لقد قيل لي أنها - أعمال - كلها تحوي بحيرات وأحاييل لاصطياد الطيور المتعاقلة، وشبه تحريض، خفي لكنه مستمر، على قلب التقديرات المعتادة والعادات المقدرة، ثم ماذا؟ ألن يكون كل شيء سوى (...). إنسان مفرط في إنسانيته؟ بهذه التهيدة سيخرج المرء من أعمال (...). لقد وصفوها بمدرسة الشك (...). مدرسة الأزراء (...). إنني أعتقد أيضا أنه لا أحد قد نظر إلى العالم بشك في عمق شك. ⁹ وهنا نفهم أن شكوكية نيتشه ليست من الأمور العارضة التي يمارسها من حين لآخر، بل كان هو مبدأ فكره والمحك الذي يسير عليه، مثلما لاحظ ذلك نقاد فلسفته. إذ أن الكثير قد أقر بأن فلسفة هدامة لكل ما تم بناءه فكريا إلى زمانه، إذ لم يسلم أي فيلسوف، ولم تسلم أي فكرة أو عقيدة من نقد وتشهير وتنفيذ. لدرجة أنه شك في فلسفته الخاصة. وفي "المسافر و ظله" الذي يحتل القسم الثاني من الجزء الثاني من الكتاب السابق، والذي ينشر في بعض الأحيان ككتاب مستقل، نجد نيتشه يعبر عن شكوكية مطلقة وريبية عاصفة قائلا في

⁸ ديوجينيس اللائري: حياة مشاهير الفلاسفة، المجلد الثالث، مرجع سابق، فقرة 79، ص 187-193.

⁹ فريدريك نيتشه: إنسان مفرط في إنسانيته - كتاب العقول الحرة، الجزء الأول، ترجمة محمد الناجي، أفريقيا الشرق الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1996، المقدمة 1، ص 9.

فقرة تحمل "خطر اللغة على حرية الفكر" عنوانا لها ما يلي: "إن كل كلمة هي حكم مسبق".¹⁰ هذه الشذرة ورغم قصرها وطابعها الاختصاري إلا أنها تحمل من المعاني أكثر مما قد يحمله فصل من كتاب أو حتى كتاب بأكمله، فهي تعبر عن أقصى ريب يمكن تصوّره، فاللغة التي نكتسبها من الأسرة كإطار اجتماعي، ولكل منا مجتمعه الذي يهيئ له لسانه الأم، هذه اللغة تقيد الفكر وتوجهه دون أن يكون له أدنى استطاعة أو قدرة على الانفلات من هذه الأحابيل التواصلية، فلئن كانت اللغة هي التي تفكر بنا وليس مثلما يعتقد الأغلبية بأننا نفكر باللغة، وتعتبر عن بنيتها بأفكارنا فإن حرية الفكر هي أعلى سذاجة إنسانية. وبمجرد أننا نفكر باللغة، واللغة من الموروث الاجتماعي الذي لم نساهم البتة في تشكيله، فإننا بالضرورة نستعمل أحكاما سابقة على فكرنا زمانا، ودون أن نشعر بذلك. وهذا ما يجعل أكثر الناس أو الفلاسفة شعورا بحريته، هم الأكثر تبعية للبنى الاجتماعية الخفية التي لا يمكن قراءتها ظاهريا و خضوعا للجواهر اللسانية التي تسير الإنسان في فكره دون أن يتفطن لذلك، وهذا يعني بأن الفرد أو حتى أي مفكر بمجرد أنه يستعمل لغة ما، فهو بالضرورة مقيد بدرجة ما.

وبعد هذه النظرة الجذرية في شكوكيتها، يواصل نيتشه محلا طبيعته الربيبية قائلا: "إن وخز الضمير يبدو لي نوعا من القيم الشريرة (...). والله وخلود النفس والخالص والماء وراء هذه - كلها - مجرد أفكار لا أوجه إليها أي انتباه ولم أضيع إزاءها أي وقت حتى وأنا طفل (...). إن المسألة بالنسبة لي مسألة غريزة، إنني دائم التساؤل على نحو مفرط، شكاك على نحو مفرط (...). فلا أدع نفسي تقع بحل للأشياء يكون واضحا وسهلا. والله هو حل واضح وسهل.¹¹ ماذا يمكن أيضا أن نفهم من هذه الفكرة القوية والقاسية بالنسبة لمن اعتاد اعتبار فكرة الله والروح والخلود من البديهيات التي لا برهان عليها بل هي وسيلة البرهان ذاته ؟ نفهم مسألة واحدة وهي أن الشك النيتشوي امتد إلى غاية الجذور التي يعتقد الغالبية أنها غير قابلة للاقتلاع والانتزاع. ثم أن الشك ليس من الأمور التي تعلمها نيتشه من المجتمع أو المدرسة، فليس هناك معلم يدرس مثل هذه المسائل، وهذا ما جعله يعتبر هذا الحس النقدي الرببي من فضائل الطبيعة عليه، وليس لأي بشر فضل عليه فيه. ولئن كان الشك بالنظر إلى الفقرات السابقة الذكر والتحليل، يشكل جزءا من البنية إن لم نقل كل الذهنية لنيتشه، الشخص والفيلسوف، الرجل والمفكر، فإنه بالضرورة يرفض كل دوغمائية وثوقية ويبتعد عن كل مبدأ إطلاقي وإيقاني، ينبذ كل جاهزية ونهاية. فعندما قارن بين اليقين والكذب في مسألة الضرر الذي يلحقهنا بتصورنا للحقيقة توصل إلى القضية التالية: "اليقين أخطر من الكذب في عدوانيته للحقيقة".¹² وهذه المعادلة تعني ما يلي: أن تكون كاذبا حسب، أحسن بكثير من أن تكون واثقا متشددا في الوثوق، لأن هذا الوثوق لا يعني سوى الانغلاق والتمركز الصبباني على الذات. والحق أن تطبيق هذه المقولة على

¹⁰ Friedrich Nietzsche : Humain, trop humain- un livre pour esprits libre, tome II, traduit par robert rovinci, éditions Gallimard, Paris, 1968, aph 55, p 260.

¹¹ فريدريك نيتشه: هذا الإنسان، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 2005، II، فقرة 1، ص 43.

¹² فريدريك نيتشه: إنسان مفرط في إنسانيته، الجزء الأول، مرجع سابق، IX فقرة 483، ص 215.

بعض ميادين العلم يكشف عن صدق جزئي لها، فأكبر عدو للعلم في تطوره التاريخي هو النزعة الوثوقية، لذا نجد فلاسفة العلم يجعلون النزوع إلى النسبي والابتعاد عن اليقينية المفرطة أهم خاصية للروح العلمي. ويواصل نيتشه تحديد معيار التفكير الفلسفي الخلاق والمبدع، الذي يتميز مطلقاً عن التفكير الذي يجتر المسائل ويكرر الأحكام، أو يتناولها بطريقة مختلفة فقط من خلال التجديد الشكلي والصوري، حيث نجده يقول في أحد الشذرات المنشورة بعد وفاته ما يلي: "لم أعد أؤمن بشيء، هذه هي الطريقة الصحيحة للتفكير عند أي موجود خلاق..."¹³. هذا، وقد جعل نيتشه شخصيته الفلسفية الرئيسية، أي زرادشت النبي الفارسي، من أصحاب التفكير الريبي، لأن هذه الطريقة هي مفتاح الخروج من أوهم الفكر والتراث المتعارف عليه، فهو يقول في الكتاب الذي تضمن البنود السبعة ضد الرذيلة والتي يقصد بها المسيحية طبعاً، وهو كتاب عدو المسيح، ما يلي: "لا نكنن مخدوعين: النفوس العظيمة متشككة. زرادشت متشكك، والحرية المتأتية من القوة ومن فرط قوة النفس تتجلى عبر الشكبة (...). إن المعتقدات هي سجون (...). إنها لا ترى بعيداً بما فيه الكفاية، ولا ترى ما تحتها."¹⁴ فأكبر ما كان نيتشه يسعى إليه هو أن يخرج هو من سجون الأوهام والمعتقدات أولاً، ثم ينبه الناس إلى مضمونها وأشكالها، فإن كانت السجون التقليدية مخصصة لتوقيف البدن وحجز الجسم، فإن السجون الأخطر هي التي تقيد الأخلاق والفكر والذوق من خلال مؤسسات قهرية هي الأخلاق والسياسة والدين... الخ. هنا نجد قد تموقع بين فيلسوفين كبيرين الأول أخذ منه والثاني حرصه على توسيع التركة وإنمائها، هما الإنجليزي "فرنسيس بيكون" الذي صاغ نظرية الأوهام الأربعة (أوهام السوق، والغابة، والمسرح وأخيراً الجنس).¹⁵ والفرنسي "ميشال فوكو" الذي واصل في تفسير المعتقدات التي تمثل سجون الفكر من خلال دراسته لتاريخ الجنسانية وهذه الدراسة هي بحق تنفيذ لوصية نيتشه، وتاريخ الجنون، وتاريخ السجن والعيادة... الخ. وهو الذي قدر شكوكية نيتشه قدرها الحقيقي عندما قال: "ليس هناك عند نيتشه مدلول أصلي. والكلمات ذاتها ليست إلا تأويلات."¹⁶ مما يسقط أي حقيقة للحقيقة. ومن الظاهر جداً، أن نص نيتشه حول الحقيقة بمعناها الما فوق أخلاقي قد أبلغ الشكوكية مبلغها الأقصى عندما اعتبر أن ليس هناك أي حقيقة، بل أن كل ما نعتبره حقيقة هو استعارات نسبينا أنها كذلك.¹⁷ والتشكك في قيمة الحقيقة هو الضربة الأخيرة

¹³ Friedrich Nietzsche : Fragments Posthumes été 1882 – printemps 1884, traduit par Anne-Sophie astrup et marc de Launy, édition Gallimard, Paris, 1997, aph 3 [119] p 80.

¹⁴ فريدريك نيتشه: عدو المسيح، ترجمة جورج ميخائيل ديب، دار الحوار، (دون مكان)، الطبعة الثانية، (دون تاريخ)، فقرة 54، ص 155.

¹⁵ فرنسيس بيكون: الأورغانون الجديد – إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة، ترجمة عادل مصطفى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2013، فقرة 40-42-43-44، ص 30-31.

¹⁶ ميشال فوكو: جينولوجيا المعرفة، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2008، ص 52.

¹⁷ Friedrich Nietzsche: Vérité et mensonge au sens extra – moral, traduit Michel Haar et Marc B. de Launay, éditions Gallimard, Paris, 2009, § 1, p 14.

والمسار النهائي في نعيش نظرية المعرفة التي تعتبر العمود المركزي للفلسفة الغربية، بل لكل فلسفة ممكنة.

ومن أجل ختم سلسلة النصوص النيتشوية الدالة عن التوجه العام لفكره من الناحية المنهجية، ومن هذه الشذرات المنتقاة من مجموع مؤلفاته، يمكننا أن نلاحظ مسألة واضحة لا غبار عليها، هي أن نيتشه يجسد بحق صورة الفيلسوف الريبي، وأكثر من ذلك فهو من أبطال التفكير الشكوكي، الذي لم يقتنع بشيء إلا اقتناعه أن مهمة الفيلسوف هي تمزيق الأقنعة وإسقاطها، وعدم قبولها على أنها الحقيقة، مثلما يفعل ذلك الكثير من الناس، بل والكثير من المتشككين أيضا.¹⁸ الذين وإن كانوا شكاكًا إلا أنهم عجزوا عن ممارسة هذا المسك ممارسة جذرية، إذ تبنّت لديهم مناطق ومواضع لم تظهر لهم وبالتالي أخذوها على أنها معتقدات غير مشكوك فيها. وهذا ما جعل منهم أنصاف شكاك وأجزاء ريب أو أبعاض ظن. وبهذا يمكن لنا وضع نيتشه في نفس منزلة فرويد وماركس من حيث أنهم أرباب الشك المعاصر دون أدنى شك، رغم ما بينهم من اختلافات تستدعي الدراسة والمقارنة الجادة والمعمقة لكشف مختلف التقاطعات الموجودة في أفكارهم والتي حصلت إما في تقارب المواضيع أو الزمن أو المناهج أو حتى التقارب في العلاقات الشخصية، فمن المعلوم أن "لو أندرياس سالومي" وهي من الحريم الفرويدي كانت من أقرب النساء إلى قلب و فكر نيتشه. لذا يمكن كشف الخيط الرابط بين شكوكيتهما عبر هذه المرأة التي تعلقت بهواية معرفة ومعايشة العظماء من المفكرين والعلماء وحتى الشعراء.

4- من الشكوكية إلى نقد البيرونية:

قد تبدو هذه النتيجة، أي النزعة الشكوكية عند نيتشه صحيحة، بحيث يمكن تثبيتها كخلاصة نهائية، خاصة وأن نيتشه قد اطلع على فلاسفة الشك، السابقين عليه، سواء الشكاك القدامى ممثلين بالمدرسة الإغريقية المعروفة بالبيرونية، أو شكاك الأزمنة الحديثة، خاصة "مونتاني" Michel Eyquem De Montaigne (1592/1533) حيث اطلع على كتابه "المقالات". كما قدمت له "كوزيما فاجنر" نسخة أخرى من هذا الكتاب، كهدية يوم ميلاد المسيح لسنة 1870. وفي مؤلفه "شوبنهاور مريبيا" (الذي يشكل القسم الثالث من الاعتبارات اللاهوتية) أبدى نيتشه إعجابه الشديد بمونتاني مثل إعجابه بشوبنهاور تماما والذات يمتلكان مميزات متشابهة مثل الصفاء والهدوء، هذا المفكر الذي عاش في قرن العقل لكنه تمرد على المعقولية الديكارتية واعتبرها أهم الأباطيل والأوهام شدة.¹⁹ مونتاني الذي فاقت شكوكيته شك ديكارت ذاته، فإذا كان أبو الفلسفة الحديثة قد شك في كل شيء ما عدا الشك، فإن مونتاني قد أوصل الشك إلى درجته القصوى وهي "الشك في الشك ذاته". وجعل الصيرورة هي جوهر هذا الوجود وطبيعته عندما قال: "أنا لا أصور الكينونة بل أعرض التحول، ليس ثمة حقيقة توجد فعلا ما عدا عقلي الذي هو في حال من تبدل وصيرورة دائمين".²⁰ (14) هنا نلاحظ مدى تجاوز شكية مونتاني لشكية

¹⁸ بول ريكور: صراع التأويلات - دراسات هيرمينوطيقية، ترجمة منذر عياشي، دار الكتاب الجديدة المتحدة بيروت، الطبعة الأولى، 2005، ص 137.

¹⁹ فريدريك نيتشه: شوبنهاور مريبيا، ترجمة قطان جاسم، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، 2016، فقرة 2، ص 31.
²⁰ Nicola Panichi : « Nietzsche et le gai scepticisme de Montaigne », Noesis [en ligne], N 10/ 2006, mis en ligne le 2 juillet 2008, consulté le 20 août 2009. URL : http : // il noesis. Revues. Org. Et :

ديكارت، فالأول لم يجعل العقل أو التفكير من البديهيات الثابتة أو الصلصالية، بل هو في حالة الغير ولا يملك صفة الثبات. وانحياز مونتاني لصف هيراقليطس ضد بارمينيدس المثالي البارد، يجعل نيتشه متحمسا لهذا الشاك الحديث، الذي يعلن الولاء للتغير والدوران دون توقف، بدل الركون للأفكار الجامدة المحنطة التي فقدت كل الحرارة الناجمة عن النار الهيراقليطية. إن مونتاني بتجاوزه للعقلانية الديكارتية فإنه يدخل في حيز سطوة اللامعقول الذي يشكل أهم سمة للعصر المعاصر الما بعد حدائثي الذي دشنه بقوة نيتشه. وإن سألنا نيتشه هنا حول أرباب الشك، فلن يقول تماما مثلما قال بول ريكور أو حتى ميشال فوكو، بل سيعلم دون تردد بأنهم: هيراقليطس ومونتاني وأنا(أي نيتشه).

ومن كل هذا، فلا يمكن لنا إلا اعتبار نيتشه من الشكاك، ويظهر ذلك في رفضه لأي أحكام مطلقة، هو ما يجعل أفكاره تسير في وجهة النسبية الكاملة أو المطلقة. فلقد رفض قبول عمل الفلاسفة السابقين عليه في مسائل كثيرة إن لم نقل في كل المسائل، واستغرق في التهديم والتسفيه واستعمل المطرقة الهدامة في تفلسفه بما يعني أن زمن البناء الفلسفي قد ولى ولم يبق إلا تفكيك تلك الأنساق العتيقة التي لم تعد ضرورية في الفلسفة، وأكثر من ذلك فهو اعتبر "الحقيقة" من التصورات العبثية، بل نفى أن تكون هناك حقيقة، كما أشار إلى ذلك في العديد من شذرات "إرادة القوة". والمعلوم أن رفض الحقيقة كمعيار يلغي الحقيقة كمضامين. وأوضح هذه الفقرات على الإطلاق تلك التي يقول فيها: "بالنظر إلى تجاربنا بأكملها، فإنه يجب علينا أن نبقي متشككين، فنقول على سبيل المثال: بأنه لا يمكن أن نثبت أو نؤكد بأي "قانون طبيعي" توود قيمة أبدية خالدة...".²¹ إن الخلود كمقولة ميتافيزيقية تقابلها الحقيقة كمقولة ابستمائية، وهي من المسائل التي يرفضها نيتشه جذريا. لأنها تكرس الميتافيزيقي وتؤسس للدين، وتدافع عن المقدس المتعالي. والمعلوم أنه قد كرس كل حياته لتهديم هذه الأفكار وإثبات بطلانها، فإن كان هناك مطلق واحد فإنه يتجسد في انعدام أي مطلق.

لئن كان كل ما قيل حتى الآن، حول شكوكية وريبية نيتشه، هو كلام منطقي وينطبق بصورة واضحة على المنهج النيتشوي في التفلسف وقلب القيم مما يعكس طريقته التهديمية، بالإضافة إلى أن نصوص نيتشه ذاتها تزكي هذا التأكيد وتثبتته. فإن مشكلة منطقية ومعرفية تعترضنا لا محالة؛ وهي مشكلة معروفة جدا في تاريخ الفلسفة، وقد أفرزها الشكاك ذاتهم عندما أعلنوا مبادئهم التي تقول: "أن القضية التي تقول بأن ليس هناك حقيقة على الإطلاق، هي ذاتها قضية ليست حقيقة". وقد عبر ديوجين عن اعتراض الدوغماطيون على مبدأ الأبيرونيين على الشكل التالي: "إن الفلاسفة الشكاك عندما يدحضون أفكار الخصوم (...) فإنهم يؤكدون أفكارا

Friedrich Nietzsche : Considérations inactuelles III, Schopenhauer éducateur , traduits de l'allemand par Henri-Alexis Baatsch et autre, Gallimard, 1990, aph 2, p 27 .

²¹ Friedrich Nietzsche : La volonté de puissance, tome 1, traduit par Geneviève Bianquis, éditions Gallimard, Paris, 1995, aph II 299, p 328. Et

André Comte-Sponville : La brute, le sophiste et l'esthète : « l'art au service de l'illusion » in pourquoi nous ne sommes pas nietzschéens, éditions Grasset et fasquelle, France 1991, p 72.

وينشؤون معتقدات نظريات".²² فهل من الممكن لمفكر مثل نيتشه أن يتبنى هذا المنهج الذي لا يعترف بأية حقيقة، رغم أنه كرّس كل حياته الفكرية لإثبات الكثير من الحقائق؛ حقيقة إرادة القوة، والعود الأبدي، وعبقورية اليونان في العصر التراجيدي، وانحطاط الفلسفة اللاحقة؟ كيف يمكن لنا اعتبار نيتشه بيرونيًا؟²³ أو هل من المعقول والمقبول اعتبار نيتشه من أتباع بيرون؟ وتابعاً لمنهجه الربوبي؟ رغم أن نيتشه يعلن بأن الحقيقة هي التي تتحدث بلسانه هو وليس هو الذي يتحدث بالحقيقة؟ هل من المعقول أن لا ينتبه مفكر نابيه مثل نيتشه إلى الإحراج الذي ينتجه تبني النزعة الشكية المطلقة؟ ثم هل استطاع أصحاب هذه الفلسفة في نظر نيتشه تجاوز انحطاط الفلسفة اليونانية، واسترجاع خصائص عصر القوة السابق لسقراط؟ وبصورة واضحة مختصرة: ما هو موقف نيتشه من الفلسفة الربوبية اليونانية باعتبارها المؤسسة الأولى منهجياً ومذهبياً لمدرسة الشك؟ ما هو موقف الشك من الشك: الشك المعاصر من الشك القديم؟ وهل هناك توافق وتواطؤ بين الشك اليوناني والشك النيتشوي أم أنه رفض هذا النوع من الفلسفة مثلما رفض عقلانية سقراط ونزوعه النظري، كما رفض الثنائية الأفلاطونية وكافح لإسقاطها، وعارض كذلك التأويلات الأرسطية الخاطئة في الأخلاق والفن والمنطق، وانزعج من النزوع الأبيقوري والرواقي والكلبي إلى هامش الحياة ونشدهم للهدوء والأتراكسا؟ وأخيراً ما هي نتيجة صراع الشكاك؟

مثلما هو معلوم، فإن نيتشه كمفكر متعبد للقدامة اليونانية، فإنه كان مهتما منذ بدايات كتاباته الفلسفية بهذه الحضارة ويظهر ذلك في كتابه الأول المسمى "ميلاد التراجيديا من روح الموسيقى". هذا الاهتمام جعله يدرس مراحلها بكل عناية وتدقيق ممارساً عمله التأويلي كمؤرخ للفلسفة، فأظهر أسباب قوة هذه الحضارة فلسفياً، والعوامل الجمالية التي ساهمت في حفظ هذه القوة. وقد أطلق اسم "المرحلة التراجيدية" على الحقبة التاريخية الأولى الممتدة من البدايات الطبيعية على يد طاليس وتلاميذ المدرسة المالطية إلى غاية ظهور سقراط المشنوم بعقلانيته وروحه العلمي المتفاهم وأخلاقيته الذهنية المنطقية عكس الأوائل اللذين كانوا إلى الشعر واللامعقول أقرب منه إلى الفلسفة النظرية. وبظهور سقراط ماتت التراجيديا كنظرية جمالية للكون، وتطورت الفلسفة بعده إلى الأسوأ مع تلميذه مهندس الميثافيزيقا الغربية رفقة جده المحترم جدا بارميندس وتلميذه أرسطو الذي لم يفعل شيئاً إلا أنه سقّف وأتم نظرياً البناء الأفلاطوني رغم ما شاع عن الاختلاف الكبير بين المعلم وتلميذه أو بين الفرس وابنه على حد تعبير أفلاطون ذاته عندما وصف القطيعة بينهما. أما المدارس الأخلاقية المعاصرة لأرسطو فهي لا تختلف من حيث الجوهر عن الأكاديمية واللوسيوم، بل زادت الانحطاط على الانحطاط من خلال التهرب من المناقشات النظرية والاهتمام بالأخلاق كعلامة على الشقاء والنزعة الفردية التي تطلب الراحة واللذة. ورغم أن مدرسة الشكاك البيرونية كانت من حيث المبادئ معرضة تماماً للفلسفة الإيجابية اليونانية، حيث اعتبرها باسكال (1662/1623) هي الحق عندما قال: البيرونية هي الحق le Pyrrhonisme est vrai،²⁴ إلا أن نيتشه لم يقف مدافعاً

²² ديوجينيس اللائرتي: حياة مشاهير الفلاسفة، المجلد الثالث، مرجع سابق، فقرة 102، ص 203.

²³ André Comte-Sponville : La brute, le sophiste et l'esthète ... Op.cit, p 73.

²⁴ Blaise Pascal: Pensées, éditions de la seine, 2005, § 432-691, p 162-163.

عنها مثلما دافع عن هوميروس وإسخيليوس وسوفوكليس وهيراقليطس التراجيدين، بل هاجمهم دون هوادة.

رغم أن نيتشه مثلما لاحظنا في النصوص السابقة يتبنى المنهج الشكي طريقا لتفلسفه، إلا أن اعتباره بيرونيا يثير نوعا من القلق على اعتبار أنهم ينتمون إلى مرحلة الانحطاط الكبرى، إذ لا يمكن أن يجعل نيتشه انتماءه إلى هذه المرحلة، مثلما استبد به الحنين للمرحلة التراجيدية الأولى. لذا فإن أحسن وسيلة لاقتطاع الإجابة وانتزاعها، والفصل في مسألة بيرونية نيتشه من عدمها، هي العودة مرة ثانية إلى شذراته وفقراته حول الموضوع، أي موقفه من هذه المدرسة اليونانية التي تقع عموما في المرحلة الثالثة من مراحل تطور الفكر الفلسفي الإغريقي حسب أدبيات تاريخ الفلسفة. حيث نجده في "المسافر وظله" يعرض لنا فلسفة بيرون الربيبة، لكن بضرب من الريب المضمّر، في شذرة عنوانها "ضمانة المتطرف في الارتياب"، إذ يطلب الشيخ من بيرون متسائلا: "هل تعيش إذن لتعلم الشك بخصوص وجود الحقيقة؟ فيجيب بيرون قائلا: بهذا الشك الذي لم يره العالم أبدا، فإن الشك في كل شيء هو الطريق الوحيد الممكن، والذي يؤدي إلى الحقيقة".²⁵ وما يمكن أن نستشفه من هذا النص الذي لا يبدو أنه يعرض بموضوعية وحيادية فكرة الشك، هو أن نيتشه ينتقد بصورة غير علنية المبدأ الأساسي لهذه المدرسة وهو: "الحقيقة لا تتأتى إلا بالشك في كل شيء". وفي هذا التقديم لمبدئهم يظهر استحالاته أصلا، لأن الشك في كل شيء يعني بالضرورة عدم إمكانية قيام تصور الحقيقة أصلا. وكأننا هنا نجد نيتشه قد مارس التعريف من خلال الهدم أو السلب لهذا الاتجاه، فقد قدمهم على أنهم مذهب مستحيل وإن كان لم يظهر بالكلمات ذلك. ويواصل نيتشه مظهره الآن علانية نقاط ضعف بيرون على لسانه قائلا: "الشيخ لبيرون: إنك تعد بأكثر مما قد تستطيع الوفاء به. يجب بيرون: إذن سأقول للناس أيضا أنني ضعيف وعاجز جدا عن الوفاء بوعودي (...) لا ينبغي للعين اليمنى أن تثق في العين اليسرى (...) لا أحد يستطيع الوعد بذلك (أي الحقيقة) عدا المتطرف. الشيخ: أيها الصديق كلماتك هي أيضا كلمات متطرف (...) سيكون عليك أن تلتزم الصمت. هل تتراجع و تتخلى عن مشروعك...".²⁶ وهنا نلاحظ أن مآل البيرونية حسب مبدئها هي الزوال والسكوت والاندثار، لأنها تحوى بذور فنائها في مبادئها.

ويواصل نيتشه في نصوص أكثر وضوحا وعلنية من النصوص الأولى حول البيرونية. فيها يدين بعنف وقسوة هذه الفلسفة، إذ نجده يقول في إرادة القوة: "بيرون وأبيقور، هما شكلان للانحطاط اليوناني (...) اختارا تقديم أسماء مبتذلة تمثل حالات لا يكون فيها الإنسان مريضا أو معافى، ميتا أو حيا (...) لقد سافر بيرون كثيرا، وعاش كثيرا، لذلك فهو عديم أكثر، وكانت حياته مناهضة ضد المذهب الكبير للماهية "سعادة = فضيلة = معرفة".²⁷ إن ما نلاحظه هنا

ذكره أيضا: إرنست كاسيرر: فلسفة التنوير، ترجمة إبراهيم أبو هشيش، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، الطبعة الأولى، 2018، ص 196.

²⁵ Nicola Panichi : Nietzsche et « le gai scepticisme » de Montaigne, Op.Cit.

²⁶ فريدريك نيتشه: إنسان مفرك في إنسانيته، الجزء الثاني، مرجع سابق، الكتاب الثاني، فقرة 213، ص 182.

²⁷ Friedrich Nietzsche : La volonté de puissance I, Op.cit., I § 76, p 34.

هو أن بيرون كان فعلا من أكبر المناهضين لنظرية "التماهي الكبرى" التي أسسها سقراط، والتي ترادف وتعاوض وتطابق بين السعادة كهدف والفضيلة والمعرفة كطرق مؤدية إلى هذا الهدف. وبهذا الشك في المعادلة السقراطية، فإن بيرون يخدم قبل الأوان المطلب النيتشوي. لكن ماذا ولدت هذه المناهضة؟ وما هي نتيجتها؟ "إن هذا الاحتجاج إنما كان نتيجة انهماك الإنسان النظري بفعل شدة مناظرته (...). إنه أعلى التحقيق للإنسان الناظر وقد تعب ووهن، وإنه لو هن الإنسان المتعب الذي صار إلى العدمية، أي صار يشك في كل شيء".²⁸ إذن وإن كان الظاهر أن بيرون قد انتقد الفلسفة النظرية السقراطية، فإن انتقاده ليس تجاوزيا وارتقائيا، إنما هو نقد سلبي ركوني، يدل على العجز في التفكير أكثر مما يدل على القدرة على البحث عن الحقيقة. إن اجتهد بيرون كان أقل بكثير من مستوى اجتهد سقراط وأفلاطون وأرسطو، لأنه بشكوكيته وانكماشه فقد أقر بعجزه في تتبع هذه الأفكار النظرية الكبرى التي تتطلب قدرة وتحملا. إن نقد بيرون للمدارس الإيجابية هو نقد التهرب والضعف. وهذا ما يعكس خاصية المدارس الأخلاقية الكبرى في المرحلة الأرسطية حيث عجزت عن إثارة المسائل الفلسفية العميقة مثلما فعل الطبيعيون ومثلما فعل أفلاطون وأرسطو. لذا توصف فلسفتهم عموما بأنها فلسفة عملية وأخلاقية أكثر مما هي نظرية.

يبدو أن بيرون، الإنسان الشكي الذي يقف على طرف نقيض من الإنسان النظري قد استطاع إسقاط مبادئ الفلسفة النظرية التي تأخذ الجدلا طريقا في تنظيرها، من خلال استبدال هذا الجدلا والنظر بالوسيلة العملية المتمثلة في الامتناع عن الحكم من أجل تفادي الفلق والكدر، ورفض المطلب الأفلاطوني والأرسطي الذي هو إمكانية القبض على الحقيقة، وعلى المعرفة الثابتة والنهائية، واعتباره الخطأ الأكبر الذي وقع فيه الفيلسوفان هو السعي وراء القبض عليها مطلقة.²⁹ لكن الحقيقة أن الشكاك ومعهم بيرون لم يفعلوا أكثر مما فعل أصحاب الفلسفة النظرية (سقراط وأفلاطون، وحتى أرسطوطاليس إلى حد ما) لأنهم اعتمدوا على معايير منطقية في الإقرار بعدم صلاحية التفكير المجرد الذي يتخذ من الحقيقة هدفا له. وبهذا الرفض فإن الشكاك لم يفعلوا أكثر من إثبات معتقد آخر، لا يقل صلابة ومطلقية عن المعتقد الذي تم إبطاله. أو بعبارة أخرى فإنهم رفضوا الميتافيزيقا (لصالح العمل والممارسة) بتأسيس ميتافيزيقا أخرى مجاورة لها.³⁰ وهذا عكس "فيلسوف المعرفة التراجيدية" الذي لا يؤسس أي إيمان جديد، وبالتالي لا يمكن أن يكون الفيلسوف الريبي مثل الفيلسوف التراجيدي في عبقريته وقوته، لأن الحقيقة الميتافيزيقية عند هذا الأخير، لا تظهر إلا وهي تجسدية، في صورة إنسانية، فهو وإن كان يتشكك، فإن الشك عنده لا يشكل غاية أو هدفا.³¹ وبعبارة أكثر تحديدا فإن فلاسفة الشك والريب قاموا بعملية استبدال، أي استبدال الميتافيزيقا الوثوقية، بأخرى ريبية لكنها في النهاية لا

²⁸ محمد الشيخ: نقد الحداثة في فكر نيتشه، الشبكة العربية للأبحاث والنشر بيروت، الطبعة الأولى، 2008، ص 539.

²⁹ ول ديورانت: قصة الحضارة، الجزء 8، ترجمة محمد بدران، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع بيروت- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس، (دون تاريخ)، ص 162.

³⁰ Friedrich Nietzsche : Le livre du philosophe, traduit par Angèle Karmer-marietti, édition sigma, (S.D), aph 173, p 136.

³¹ Ibid, § 37, pp 47 – 48.

تقل وثوقية عن الأولى. ونحن نعرف أن الاستبدال ليس حلا، بقدر ما هو نصف حل، لأن المطلوب هو التغيير الجذري لا الاستبدال فقط، فالعديد من التجارب الفكرية أثبتت فشلها بهذا السبب. إن ما قام به الشكاك هو استبدال عقيدة قوية ايجابية بأخرى ضعيفة سلبية، وهذا لا يعكس أي تقدم أو إحياء للقوة الفلسفية اليونانية.

فماذا يقول نيتشه بعد كل هذا ؟ إزاء هذه العيوب والنقائص في المطلب البيروني، فإن نيتشه لم يتوان في وصف أتباعه بأقصى الأوصاف السلبية الكريهة، فقد اعتبر الشكاك في الكتاب الثالث من إرادة القوة تجسيدا لمقولة الفشل عندما قال: إن الصراع الطويل بين المذاهب والآراء الفلسفية، أدى بالشكاك إلى ضرب من الفشل والعياء، وعدم القدرة على تتبع هذه المواقف، مما جعلهم ينتجون فلسفة محطمة ومنكسرة لا يمكن لها المناورة، وعاجزة عن أي تفكير إيجابي فعال مقارنة بالفلسفات السابقة. وبالتالي فالشكاك هم نتيجة للانحطاط وعدم القدرة على التفكير، واتجاههم تعبير على الانحلال وتفسخ العقل والروح الفلسفيين.³² إن هذا الفشل في المهمة البيرونية، هو الذي جعل مفكرا محاربا مثل نيتشه يتبرأ بصورة كاملة، وينسحب بشكل كلي من هذه الريبية العدمية ويعلن: "بالنسبة لنا، لسنا أبدا شكاكاً، إذ مازلنا نؤمن ونعتقد بوجود تراتبية بين الرجال وحتى المسائل".³³ فلو قبل نيتشه بمبادئ الريبية فإن ذلك سيكون معناه تهديم كل ما أثبتته بخصوص مسائل الأخلاق والميثافيزيقا والجمال. فانتساب نيتشه لهذه الفلسفة يجعله يشعر بالضعف والقصور، وهو الذي كان يسعى طوال حياته لإثبات وجود حقيقة تتمثل في إرادة القوة، وكتاباته الأخيرة شاهدة على ذلك.

من كل هذه النصوص النيتشوية يمكن أن نرى التوجه العكسي لفلسفته، فبعدما انطلق ريبيا في منهجه، ورفضاً الفلسفة الدوغمانية الوثوقية التي تقبل المعتقدات الجاهزة والكاملة. انتهى إلى رفض المذهب البيروني القديم على أساس أنه تراجع بخطوتين على الفلسفة التراجمية وليس بخطوة واحدة فقط مثلما فعل سقراط الفيلسوف المنحط.

بهذا النقد الذي وجهه نيتشه إلى مدرسة الشك اليونانية، يكون قد فعل مثلما فعل العديد من الفلاسفة السابقين عليه وحتى اللاحقين له. فهذا "بليز باسكال" في العصر الحديث، قد عارض البيرونية pyrrhonisme من منطلق ديني وإيماني، فلو افترضنا - يقول باسكال - أن منطلقات هذه الفلسفة صحيحة وصادقة، فإن هذا لا يعني صحة نتائجها، بل على العكس هي خاطئة، وسبب ذلك بسيط جدا وهو أن مبادئ خصوم البيرونية صحيحة كذلك، إذ لا يمكن تصديق البيرونية أكثر مما نصدق أي فلسفة معارضة لها.³⁴ لأن البيرونية ذاتها تقوم على هذا المبدأ، أي أن كل معرفة ونظرية مجرد اعتقاد لا أكثر، فليس هناك أي مبرر لتصديق فكرة على حساب أخرى سوى الاعتقاد. وكما هو معروف فإن العقيدة ليست فكرة منطقية بل سيكولوجية، لأن قوتها لا تنتمي إلى البرهان مثلما لاحظ ذلك بحق العالم النفسي الأمريكي وليام جيمس في تأملاته حول الدين.

³² Friedrich Nietzsche : La volonté de puissance, tome II, traduction de G. Bianquis, éditions Gallimard, Paris, 1995, III aph 8 – 63, p 14 – 33.

³³ Ibid, § 692, p 206.

³⁴ Blaise Pascal : Pensées, Op.cit, aph 392 – 109, p145 – 146.

5-خاتمة.

تبدى لنا نيتشه في البداية فيلسوفا شكيا يفوق البيرونيين في شكوكيته تجاه كل القضايا، لكن بعد فحص نصوصه تكشف موقفه المناهض للريبية المذهبية على أساس أن تنكر الحقيقة وتنكر البحث النظري في مقابل ركونها إلى السكينة الأخلاقية. وفي هذا ما يتعارض مع فلسفة نيتشه ذاتها التي اعتبرت ما قدمته حقيقة واضحة. إذ أن نيتشه يتحدث دوما عن إرادة القوة كحقيقة نهائية.

إن ما يمكن أن نستخلصه من قراءة نيتشه للفلسفة الريبية البيرونية، هو أن هذه الفلسفة تمثل في نظره أقصى درجات انحطاط وتدهور الحضارة والفلسفة اليونانية، فبيرون هو "بوذي في اليونان"،³⁵ على اعتبار البوذية هي ديانة التخلي عن الحياة مثلها مثل المسيحية. إنه عدمي بآتم معنى الكلمة، وعدميته تدل على سلبية كاملة، وانكماش مطلق. فبيرون لا يمثل نموذج المفكر اليوناني الحقيقي والأصيل، لأن الانحطاط علامة ودلالة على هجانة الأصل، وربما رحلاته إلى الهند، كما أشار إلى ذلك ديوجين، قد جعلته كذلك، مثلما جعلت رحلات أفلاطون إلى مصر، مفكرا هجيناً وسمته ليفقد روحه الإغريقي الأصيل. إن نظرية الشكاك السلبية تجاه المعرفة لا تسير، في نظر نيتشه، خطوة واحدة إلى الأمام، بل على العكس، فهي لم تقدم أي شيء جديد لمحصلة التفكير اليوناني الذي كان متميزاً بغريزة المنافسة المعرفية، حيث كل مفكر عظيم يناهز الآخر. لقد غرقت الفلسفة الشكية اليونانية في الاجتهادات الفلسفية السابقة، وطغت عليها النزعة التاريخية، لم يستطع أصحابها الظهور بمظهر إيجابي فعال، أو أن يقدموا شيئاً من شأنه أن يبين ويبرز قدراتهم وإيجابياتهم. فهم، في الأخير عرض من أعراض تضخم وإفراط الدراسات التاريخية، وسيطرة الماضي الغني بالمنتجات الفكرية والفنية على الحاضر الفقير لكل شيء.³⁶

وهذا يعني أن الشكاك اليونان، في نظر نيتشه، لم يستطيعوا استعادة مجد الفلسفة اليونانية. هذا المجد الذي انكسر وتحطم على يد سقراط الفيلسوف الناظر، ويوربيديس الشاعر التراجيدي المنحرف عن التقليد الأول الذي أسسه كل من هوميروس واسخيليوس وسوفوكليس. فرغم معارضة مبادئ الفلسفة الريبية البيرونية، لمبادئ الفلسفة النظرية والعقلية المثالية التي تأسست على يدي سقراط وأفلاطون، وتسقفت على يد المعلم الأول أرسطوطاليس بمنطقة الصوري الذي اختزل العيني المتغير والمتعدد إلى الذهني الثابت والموحد. فإن هذا لا يعني أبداً أنه أحيا العصر المأساوي الأول، الذي تجسدت فيه عبقرية اليونان، وقوة الروح الإغريقية. بقدر ما تمثل هذه الفلسفة مواصلة للانحطاط والضعف، وبهذا يمكن اعتبار الريبية اليونانية ممثلة في شخص بيرون وأتباعه، بالنسبة لنيتشه، هي عنوان الانحطاط الأكبر إلى درجة العدمية.

³⁵ Friedrich Nietzsche : La volonté de puissance I, Op.Cit, I § 76, p 33. Et André Comte-sponville : La brut, le sophiste et l'esthète : « l'art au service de l'illusion », Op.cit, p 73.

³⁶ Friedrich Nietzsche : Seconde considération intempestive -de l'utilité et de l'inconvénient des études historiques pour la vie, traduction d'Henri Albert, G. F. Flammarion, Paris, 1988, § 5, p 112.

ومع النقد والرفض النيتشوي للفلسفة الشكية، يحق لنا طرح مدى أصالة وجدة وفراة هذا النقد والتهديم؛ فهل كان نيتشه مجددا ومبدعا في نقده لفلسفة بيرون ؟ إن مجرد المقارنة بين موقفه وموقف بقية الفلاسفة السابقين عليه يكشف أن نيتشه في الحقيقة لم يخالف السابقين في "نوعية النقد" الموجه للشكاك. فقد سلك نفس الطريقة، من خلال إظهاره أن البيرونية تحمل نقدها في مبادئها. وإن كان هناك شيئا من الجدة في نقده فهو بوزيتهم فقط. لذا فإن شك نيتشه في الشكاك الإغريق لم يكن شكاً إبداعياً، بل ما وقع في ما قيل من قبله. وتظهر تكرارية النقدي النيتشوي للفلسفة الربية المذهبية مقارنة بالانتقادات السابقة عليه، في أنه دخل من نفس المدخل النقدي الذي استعمله الفلاسفة السابقون. ويتمثل هذا المدخل في استحالة إثبات أطروحة انعدام الحقيقة، لأن ذلك يهدم الأطروحة ذاتها، بمعنى أن هذه الفلسفة مستحيلة من الناحية النظرية. ويبقى وصف هذه المدرسة بالبوزية، باعتبارها فلسفة الانسحاب إلى هامش الحياة، وفلسفة السعي وراء الراحة والطمأنينة من خلال تعليق كل أحكام الحقيقة والتخلي عن البحث، لصالح نقاهة الجسم والعقل معا.